4
مراوغة الأعداء والحاجة إلى اليقين

بالرغم من أن الأساليب التكتيكية المستخدمة حاليا في «الحرب على الإرهاب» تؤجج مشاعر الغضب التي تسعّر بدورها الإرهاب، إلا أنها قدمت وعدا (زائفا) باليقين والأمان في عالم يزداد تخويفا وترويعا باطراد. لقد تصرف بوش وبلير، عند شن الهجمات على البلدان الأخرى أو عند التعامل مع التمرد داخل أفغانستان والعراق، على أساس وجود مجموعة متميزة ومحددة من الإرهابيين والدول الداعمة لهم بحيث يمكن القضاء عليها بصورة مفيدة ومشروعة. وفي حين أن هذه المقاربة أفرزت نتائج عكسية فيما يتعلق بتقليص خطر الإرهاب، إلا أنها فوق كل شيء تمتعت بميزة تحديد عدو في ظروف يعتبر فيها التهديد متنوعا ومنتشرا وغامضا.

أصر بوش وصحبه على الترويج لليقين باعتباره في حد ذاته مروجا للأمان. على سبيل المثال، قال بوش في أول مناظرة له سبقت انتخابات عام 2004) «عرف الناس أين أقف. وأولئك الذين يسمعون الآن يعرفون ما أؤمن به، والطريقة المثلى للحفاظ على السلام»[1]. وفي الحملة الانتخابية الرئاسية لعام 2004، تكرر ـ بالمقابل ـ تصوير منافس بوش، جون كيري، كشخص متقلب ومشوش، وبالتالي فهو مصدر للخطر. وعلاوة على الإصرار على الصلة بين اليقين والأمان، ربما يكمن أيضا اهتمام (ثانوي) باليقين باعتباره جزءا من الازدهار. في تشرين الثاني/ نوفمبر 2002، وجد بوش أن خطط إجراء مزيد من التخفيضات الضريبية يصطدم بمشكلة الركود والاقتصاد المحاصر بعدم اليقين في خضم الحديث كله عن الحرب على

العراق؛ فأبلغ مستشاريه قائلا: «لن نتخلص من حالة عدم اليقين حتى نتخلص من صدام حسين»[2] وفي خطاب لحشد التأييد أمام البرلمان البريطاني في الثامن عشر من آذار/ مارس 2003 قبيل الحرب على العراق، لاحظ بلير أن «العالم يزداد اعتمادا على بعضه بعضا. فالاقتصادات وأسواق الأسهم ترتفع وتنخفض معا، والثقة مفتاح الازدهار. أما انعدام الأمن فينتشر كالوباء. لذلك، يتلهف الناس على الاستقرار والنظام»[3].

بالنسبة لمعظم الأمريكيين، يبدو أن الشعور بالضعف والانكشاف أمام الخطر قد تفاقم نتيجة الدرجة المرتفعة من المناعة ضد الحرب التي تمتعوا بها سابقا. إذ لم تقع حرب على التراب الأمريكي منذ الحرب الأهلية التي وضعت أوزارها عام 1865 (تعرضت الولايات المتحدة مرة واحدة لهجوم مباشر شنته القوات اليابانية على بيرل هاربر في هاواي في كانون الأول/ ديسمبر 1941، مما سبب صدمة عميقة عجلت بمشاركة الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية، وأدت في نهاية المطاف إلى قصف مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين بالسلاح الذري في آب/ أغسطس 1945)[4] وفي حين أن الخوف كان شديدا بالتأكيد خلال الحرب الباردة، إلا أن الأزمة المستعصية مع الاتحاد السوفييتي تمثلت بالضبط في ابتعاد الطرفين كليهما عن المواجهة الفعلية. وجرى خوض حروب تلك الفترة بالوكالة: أما الخسائر والضحايا فقد صدرت عمليا إلى البلدان النامية. الاستثناء الجزئي لتلك القاعدة تمثل في حرب فيتنام، التي قتل فيها عدد كبير من الأمريكيين. لكن هذا عزز على ما يبدو الشعور بأن حياة الأمريكيين مقدسة ولا يجوز المساس بها. في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، حين كنت أعيش في تكساس (حيث سيصبح جورج بوش الابن حاكما للولاية)، أذكر شعورا غريبا بالمناعة والحصانة ملأ كياني، شعوراً بأنك بعيد جداً عن مشكلات بقية العالم (وباقي أمريكا). في هذه البيئة كان لمبادرة «حرب النجوم» الطائشة التي أعلنتها إدارة ريغان (لصد الصواريخ القادمة في أعالي

السماء) رنين غريب ومعقول ـ كأنما الصواريخ ليست سوى كرات بيسبول يمكن صدها بسرعة بواسطة مضرب ضخم يحمله رئيس/ نجم سينمائي سابق.

في أحد أيام أيلول/ سبتمبر 2001 تحطم هذا الإحساس المتراكم بالمناعة بصورة دراماتيكية، ولم تفلح الإجراءات الرسمية اللاحقة (مثل الإنذارات المختلفة الألوان المحذرة من الهجمات الإرهابية) إلا في تعميق هذا الإحساس بالخوف. بعد شهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر نشرت مجلة «تايم» مقالة عبرت بوضوح عن مناخ الخوف الجديد حين قالت: «يجد كل شخص نفسه عالقا في الجبهة»[5]. علاوة على ذلك، كان هناك شعور عميق بفقد حس الاتجاه. فالحفاظ على السلم خلال الحرب الباردة كان يعتمد غالبا على مبدأ الردع: كل من يفكر بشن الحرب عليه أن يحسب حساب تهديد رد انتقامي واسع النطاق. كما أن مبدأ الردع دمج في تطبيق القانون على المستوى المحلي، حيث اعتبرت حيازة الأسلحة النارية، والاعتقال والحبس على نطاق واسع، والاستخدام المتكرر لعقوبة الإعدام، بمثابة رادع للمجرمين في الولايات المتحدة[6]. لكن الردع لن يعمل مع الإرهابيين الانتحاريين. ويعود جزء من السبب إلى تمتع الإرهابيين بالقدرة على المراوغة والتملص والإفلات من العقاب. وكثيرا ما يندمج الإرهابي، نتيجة مقدرته الكبيرة على الحركة وعدم القدرة على تمييزه، في المجتمع المضيف[7]. ولربما يعتمد في بقائه على عالم الجريمة السري الذي يتكيف باستمرار مع الترصد ومحاولة القمع. وفي أحيان كثيرة، يراوغ الإرهابي حتى عند الموت، حيث كثيرا ما ينجو من التحقيق أو المساءلة أو العقاب لأنه ينتحر عند تنفيذ جريمته. الأمر الذي يمثل مشكلة أخرى بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بمبدأ الردع: فلربما يرغب الإرهابي فعلا بالموت. فهل يستطيع أحد، مثلا، أن يظهر مثل هذا الفخر عند صدور حكم الإعدام كما فعل منفذ تفجيرات بالي، أمروزي بن نورهايسم، ميكانيكي السيارات المبتسم دائما والقادم من جاوا الشرقية؟ في أيلول/ سبتمبر 2002، ذكر بوش ذاته في إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة:

إن المفاهيم التقليدية للردع لن تنجح ضد عدو إرهابي تتمثل أساليبه التكتيكية المعلنة في التدمير العشوائي واستهداف الأبرياء؛ أولئك الذين يدعون جنودا يسعون للاستشهاد، وتتجسد أفضل حماية ممكنة لهم في كونهم لا ينتمون إلى أي دولة[8].

يبدو أن إحدى القواعد الأبدية للحرب هي: حين يكون العدو خفيا مراوغا، يجب العثور على أعداء يسهل الوصول إليهم. خلال الحرب الأهلية في ليبيريا، قال الأسقف ناه ديكسون (من الكنيسة العنصرانية) عن الجنود الحكوميين وما يرتكبونه من انتهاكات: «لأنهم غير قادرين على مواجهة العدو على أرض المعركة، يهاجمون المدنيين الأبرياء.. يقتلونهم بشبهة تحريض وإخفاء المتمردين»[9]. مشكلة مشابهة ظهرت في سيراليون[10]. ويبدو أن العقاب سيجد ضحاياه على الدوام، وسيجد تفسير المعاناة موضوعه. فبعد مدة وجيزة من الحادي عشر من سبتمبر أعلن بوش أن «أحدا ما سيدفع الثمن»[11]. وأبلغ الملك الأردني عبد الله الثاني: «هناك شهوة لسفك الدماء، لكننا لن نتركها توجه ردة فعلنا.. نحن نتمتع بالثبات ووضوح الرؤية والصبر، لكننا سوف نبدأ قريبا بإنزال العقاب الشديد»[12]. وكما لاحظ رينيه جيرارد: «حين لا يجد العنف ما يهدئ حدته، يسعى إلى / ويجد دائما ضحية بديلة. فالمخلوق الذي أجج الغضب يستبدل فجأة بآخر، يتم اختياره بسبب ضعفه وعدم مناعته وسهولة الوصول إليه»[13]. آلية مشابهة شدد عليها ـ في سياق مختلف ـ الطبيب النفساني الأمريكي جيمس غيليغان، حين أظهر كيف ينفس المجرمون العنيفون عن غيظهم وغضبهم على ما أصابهم من إذلال في الماضي في أولئك الذين جعلهم حظهم العاثر قريبين منهم وأيقظوا مشاعر الخزي والإذلال السابقة (سوف نناقش هذا المنظور بصورة أشمل في الفصل التاسع).

بعد الحادي عشر من سبتمبر، ثبت أن أسامة بن لادن، الذي شاع اعتباره مهندس أحداث سبتمبر الفظيعة، مراوغ وقادر على الهرب والتخفي. وعززت العادة

القديمة ذاتها المتمثلة في إطلاق التهديدات ضد الدول فكرة تحديد هدف يمكن الوصول إليه. نائب الرئيس ديك تشيني كشف شيئا من «المنطق» الأساسي حين قال: «نصل إلى الدول تبعا للمدى الذي نحدد فيه مهمتنا عموما، بما فيها الدول التي تدعم الإرهاب. ومن السهل العثور عليها مقارنة بالعثور على ابن لادن»[14]. لم يكن الاندفاع المتهور إلى الحرب مع أفغانستان أمرا مبررا. فمثلما لاحظنا آنفا، اتخذت باكستان والطالبان خطوات وإجراءات بعد الحادي عشر من سبتمبر للسماح كما قيل بإخراج ابن لادن من أفغانستان وتسليمه؛ وكان من المحتمل بالطبع ألا ينجح ذلك، لكن تحديد وعد نهائي لتسليمه كان أمرا ممكنا. على أي حال، تدرب الخاطفون التسعة عشر (ولم يكن بينهم أي أفغاني) على أداء مهمتهم في أوروبا والولايات المتحدة لا في أفغانستان[15]. لكن القادة الرئيسيين ما كانوا ليتخلوا كما يبدو عن ذلك الحل المجرب والموثوق (بشكل غريب): الحرب. إذ يجب تحديد أعداء، واستعراض قوة الرد العسكري.

حين كان صناع السياسة يخططون للحرب في أفغانستان، بدا البلد المستهدف مغايرا بشكل مرض للإرهابيين. ففي حين أن هؤلاء مراوغون ومتخفون وغائبون عن البصر، فإن أفغانستان بلد معروف وموجود على الخارطة: عدو محدد لا يستطيع التحرك والتخفي. الشيء ذاته يصدق على العراق الذي عد هدفا مرغوبا أكثر: لأن رمسفيلد، كما يتذكر كبير خبراء مكافحة الإرهاب في الولايات المتحدة ريتشارد كلارك، اشتكى في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر من عدم وجود أهداف تستحق القصف في أفغانستان، وأن على الإدارة التفكير بقصف العراق، الذي يمتلك برأيه أهدافا أفضل[16].

لكن الوضع أصبح معكوسا مرة أخرى بالنسبة للجنود الأمريكيين وحلفائهم الذين يقاتلون في هذين البلدين، وأصبح العدو مجددا مراوغا ومتخفيا ومريعا

يصعب العثور عليه ومواجهته. لقد اتخذ العنف في أفغانستان والعراق شكل حرب أهلية بين متمردين وقوات مدعومة من الغرب، ومثلما هي الحال في العديد من الحروب الأهلية / الداخلية، سرعان ما يسعى الجنود إلى أهداف يسهل الوصول إليها وتحديدها. وفي الحقيقة، فإن من السهل جدا أن يتوسع استهداف العدو ليشمل قتل المدنيين. علق الرقيب جون ميدوز على تجربته في العراق فقال:

> لا يمكنك التمييز بين من يحاول قتلك ومن لا يحاول. وكأنما الطريقة الوحيدة للخروج من هذه الورطة هي التركيز على قتل أكبر عدد ممكن من الناس، الذين تعلم أنهم يحاولون قتلك. يجب قتلهم أولا ثم العودة إلى أرض الوطن[17].

أما جندي مشاة البحرية مايكل هوفمان فكتب يقول عن تجربته في العراق: «حين يكون عدوك غامضا، يصبح كل شخص عدوك»[18]. ولربما تعزز أسلوب العمل هذا بغياب الدليل الذي يثبت صلات العراق بأحداث الحادي عشر من سبتمبر. يضيف هوفمان:

> «الحرب من أجل النفط» تعبير يعرفه الجنود في العراق جيداً. فهذا هو السبب الوحيد الباقي لهذه الحرب، الأمر الذي يترك للذين يقاتلون على الأرض سببا واحدا للقتال ـ العودة إلى الوطن أحياء. وحين يهيمن هذا النوع من اليأس، يسهل وضع من تواجههم في مرتبة دون البشر، وارتكاب أعمال فظيعة بحقهم.

فاقمت مشكلة الاتصال صعوبة تمييز المقاتلين عن غير المقاتلين[19]، وكذلك حقيقة عدم ارتداء المتمردين زيا موحدا[20]. وفي هذه الحالة، لم يثبت وجود هدف أكثر إغراء وسهولة في الوصول إليه من الأسرى، والعديد منهم ـ في أفغانستان والعراق ـ لا علاقة لهم بالتمرد في البلدين[21]

عندما نأخذ بعين الاعتبار ردود الفعل الانعكاسية لبوش / بلير والجنود على الأرض، من المفيد أن نتذكر موقف الجنود الأمريكيين الذين واجهوا عدوهم المراوغ في فيتنام: «الفيتكونغ»* الذين برعوا في استخدام الغابات والمدنيين الفيتناميين كغطاء لهم. الجندي السابق غريغ اولسن قال للكاتبة سوزان فالودي: «كنا نمشي كثيراً في الأدغال، لكننا لم نواجه ولو مرة واحدة حشدا من الأعداء يمكن رؤيته». ومعظم الخسائر البشرية التي لحقت بفرقة اولسن نتجت عن الشراك المنصوبة والألغام الأرضية. أما الملازم في الجيش الأمريكي وليام كالي فقد لعب دورا مفتاحيا في مذبحة «ماي لاي» الشهيرة التي ارتكبها أفراد من سرية «تشارلي» («فرقة أميريكال»). ويبدو أن الأعمال الوحشية التي ارتكبها كالي انبثقت في جزء منها من محاولاته «حل» مشكلة «الفيتكونغ» القادرين على المراوغة والتخفي دائماً وأبداً. كتب يقول فيما بعد:

> في النهاية اتضحت الفكرة أمامي ـ هؤلاء الناس هم جميعا من الفيتكونغ.. أدرك أن هناك أمريكيين يقولون: «وكيف تعرف حقا؟». حسنا، كنت هناك. اتخذت قرارات. كنت بحاجة إلى أجوبة، ولم أجد إجابة أكثر منطقية[22].

وأضاف:

> واجبي في منطقتنا كلها العثور على الفيتكونغ، ومواجهتهم، وتدميرهم. وجدت آنذاك الفيتكونغ. الناس كلهم من الفيتكونغ. الشيوخ والأطفال والرضع كانوا جميعا من الفيتكونغ أو سيكونون منهم بخلال ثلاث سنين. أعتقد أن داخل نساء الفيتكونغ الآن آلاف من الفيتكونغ الصغار[23].

ألقى كالي رضيعا فيتناميا (عمره عامان) في خندق للري حيث كان المدنيون يقتلون بالرصاص. وعلقت سوزان فالودي بما تتمتع به من وعي وفطنة في كتابها

«القسوة»: «لم يكن قتل المدنيين مجرد نوبة هياج عنيف وهمجي في عالم خرج عن السيطرة فقط؛ بل كان أيضا محاولة لإعادة فرض إطار متوقع، بغض النظر عن سخف مقاسه.. فالرجال سيؤدون مهمتهم بأي طريقة كانت»[24]. من العدل الإشارة إلى أن بوش وبلير بذلا بعض الجهد لتقليص الخسائر في صفوف المدنيين إلى الحد الأقصى. لكن حتى في هذه الحالة، فإن الطبيعة العشوائية لأهدافهما المختارة ـ علاوة على ميل العنف إلى التوسع من استهداف المتمردين إلى استهداف «المشتبه بانتمائهم إلى المتمردين»، إلى استهداف المدنيين ـ تردد صدى تصميم كالي وجماعته على «أداء مهمتهم بأي طريقة كانت». فالرغبة في العثور على عدو تأتي أولا: ومقاومة هذا المشروع الإمبراطوري الجديد ملأت الفراغ و«تفضلت» بتوفير واحد (لتحل مشكلة العثور على عدو).

إن تحديد العدو ـ حتى وإن كان الخيار عشوائيا ـ يوفر على ما يبدو الرضى المعرفي/الإدراكي الناتج عن اليقين في عصر غياب اليقين، مثلما أوضحت هانا ارندت في دراستها «أصول التوتاليتارية». في إحدى المناظرات التي سبقت انتخابات عام 2004 مع بوش، أدلى المرشح الرئاسي جون كيري بتعليق معبر: «يمكن أن تكون على يقين، لكن يمكن أيضا أن تكون على يقين وعلى خطأ». لكن هانا ارندت شددت على أنه بالنسبة للزعماء الراغبين باجتذاب الجماهير إلى صفهم، فإن المهم ليس الصواب، بل اليقين.

أشارت ارندت إلى أن جزءا من جاذبية الفاشية تمثل في حقيقة أن تحديد هوية عدو واضح المعالم ـ حتى لو كان مريعا ـ يظل أقل ترويعا وتشويشا من عالم بقي مصدر عدم الأمان فيه غامضا ومبهما. ففي ألمانيا، شمل المشروع الفاشي الإمساك بهؤلاء «الأعداء» الذين «عاشوا بيننا"، ووسمهم بالعلامات المميزة، وفصلهم وعزلهم، ثم إبادتهم في نهاية المطاف. ومن المهم في دلالته أن الدعاية (البروباغندا) النازية

حاولت أن تفاقم حالة الخوف من اليهود والعداء لهم من خلال استغلال حقيقة أن من الصعب ـ غالبا ـ تمييزهم عن غير اليهود. وبالتالي، فإن اللغة التي تجردهم من صفاتهم الإنسانية رُبطت، بقصد إحداث الصدمة والرعب، بإعلان أنهم يبدون مثلنا تماما![25] لم ترتبط جماعة بشكل أكثر عمقا مع الثقافة الألمانية من اليهود؛ ولم تحقق أي أقلية قومية نجاحا أعظم من نجاحهم في الاندماج. لكن ذلك لم ينقذهم. وفي الحقيقة فإن النازيين نجحوا في إعادة تعريف الاندماج ليصبح تلوثا وعدوى، والمضمون المستخلص اقتضى ضرورة القضاء على العامل الملوث أو المعدي.

اعتبر الإرهابيون أيضا بمثابة خطر مهدد نظرا لصعوبة تحديد هويتهم، وفصلهم، ووسمهم بعلامات مميزة. فهم يعيشون غالبا بين ظهرانينا. ولربما يكون الإرهابي منتسبا إلى الجامعة التي ندرس فيها أو مدرسة الطيران التي نتدرب فيها، أو يجلس في المقعد المجاور في قطار الأنفاق[26]. فكم يبلغ حجم إغراء العثور على طريقة لفصل وعزل الإرهابيين، وتحديد موقعهم على الخريطة، ومهاجمتهم! في الوقت ذاته، تحظى هذه الإزاحة من الإرهابيين المراوغين المتخفين إلى «دولة تدعمهم» بميزة (مشبوهة) تتمثل في المساعدة على إبقاء مبدأ الردع القديم حيا. ومثلما علق أستاذ القانون في جامعة هارفارد الن ديرشوفيتز:

الرغبة في الاستشهاد لا تلغي بالضرورة جميع احتمالات ردع العمل [الإرهابي] بالتهديد بالعقاب الشديد. بل تتطلب فقط توجيه هذا العقاب نحو شخص، أو شيء، غير الاستشهادي المحتمل نفسه ـ مثل القضية التي يدافع عنها أو أولئك الذين يقدمون الملاذ له[27].

بكلمات أخرى، مات الردع؛ عاش الردع! وبدلا من التفكير بحلول مبتكرة لمشكلة بازغة، عرّف صناع السياسة مشكلة الإرهاب بطريقة تستحضر الحل القديم: الحرب. التهديد الإرهابي شديد التعقيد، حيث يشكل تهديدات أمنية متنوعة وغير

ممركزة غالبا تنبثق من عمليات سياسية وأنساق ثقافية معقدة. وبالتالي فإن الأشد إغراء هو الوصول إلى نوع من اليقين المعرفي/الإدراكي عبر وضع كل شيء تحت عنوان متقن (لكن لا معنى له في نهاية المطاف) هو «الشر». ومن تمظهرات هذه النزعة للتجميع العشوائي فكرة بوش حول «محور الشر»، التي استحضرت إلى الأذهان دول المحور في الحرب العالمية الثانية (ألمانيا، إيطاليا، اليابان)، إضافة إلى التضمين الخاطئ بأن العراق وإيران وكوريا الشمالية تتعاون مع بعضها بعضا ((28)هذا الترتيب للأعداء الأشرار لا يتم بسلاسة على الدوام. فقد لاحظ رمسفيلد عام 2003 أن «هنالك أربعة بلدان لن تؤيدنا أبدا، أبدا، ـ كوبا، ليبيا، ألمانيا..». فسأل أحدهم: «والبلد الرابع؟». أجاب «نسيته»)[29]. ثم ظهر نموذج آخر لنزعة «التجميع العشوائي» في أول مناظرة لبوش قبل الانتخابات مع جون كيري، حين جمع الرئيس بين المهاجمين الذين نفذوا عملية الحادي عشر من سبتمبر والمقاومة العراقية مع الميليشيات التي هاجمت مدرسة بيسلان في روسيا:

> على أمتنا واجب وحيد هو هزيمة إيديولوجيا الكراهية هذه.. لن تكتفي هذه المجموعة من القتلة بالقتل هنا، بل تقتل الأطفال في روسيا، وسوف تهاجمنا دون رحمة في العراق آملة بزعزعة إرادتنا. علينا واجب هزيمة هذا العدو.. وأفضل طريقة لهزيمته.. هي البقاء دوما في موقع الهجوم.

على أحد المستويات، يبدو أن بوش يجمع أعداءه كلهم في سلة واحدة، ومن هنا جاءت الاستجابة المشوشة للحادي عشر من سبتمبر والفصل بين المشكلة والحل. وبالنسبة له، فإن الحالة العميقة من عدم اليقين والتشوش وفقدان الاتجاه التي انبثقت من الحادي عشر من سبتمبر تطلبت عملا إجرائيا. أما السؤال المفتاحي فلم يكن هل ظن أحد بأن العمل سينجح أم لا بل هل كان لدى أحد فكرة أفضل. فقد

اعتبر العمل جليلا بحد ذاته، وقال بوش أمام طلاب كلية «ويست بوينت» العسكرية في أواسط عام 2002: «في العالم الذي دخلناه، السبيل الوحيد للأمان هو سبيل الفعل»[30]. ولاحظ ريتشارد كلارك، «مرجعية» مكافحة الإرهاب في الحكومة الأمريكية، أن بوش شعر بالحاجة إلى أن «يفعل شيئا كبيراً» ليرد على الحادي عشر من سبتمبر[31]. وحين تذكر الشك الذي أبداه كولن باول، قال بوب ودوارد إن «باول أدرك أن حججه استجدت سؤالا: حسن، لكن ما الذي ستفعله؟ لقد عرف أن بوش رغب، بل أصر في الحقيقة على الحلول»[32]. ويبدو أنه كان سيؤدي مهمته بأي طريقة كانت.

انعدام الأمن الاقتصادي والبحث عن يقين

خلال الحملة الانتخابية المتكافئة تقريبا التي فاز فيها بوش عام 2004، بدا أن حالة انعدام الأمن الاقتصادي والاجتماعي المرتبطة بنظام بوش قد تسهم في فوز كيري. لكن لم يكسب كيري، ولربما قدمت هانا ارندت جزءا من مفتاح اللغز حين أشارت إلى أن حالة انعدام الأمن الاقتصادي والاجتماعي في حقبة سالفة لا تعمل على تغذية الوعي الراديكالي ودعم الاحتجاج المتطرف فقط، بل التلهف الأكثر استكانة على زعامة، ويقين، ونوع من «الاحترام» الذي يحصل عليه المرء من التماهي بشدة مع أمة أو جماعة اثنية قوية. ووفقا لارندت، خدم تشويه النازيين لسمعة اليهود عملية عزل وتطويع سلسلة من المخاوف المتعلقة بالحداثة وعدم الأمان الاقتصادي[33]. وعرض النازيون تفسيرا لحالة عدم الأمان الاقتصادي والهزيمة في الحرب العظمى (الحرب العالمية الأولى)، فاندفع عدد كبير من الناس العاديين لاعتناقه. وفي هذه الحالة، يبدو أن تعريف التهديد المسمى بالاسم قد ناب عن مخاوف أخرى من الأصعب تسمية أو تعيين مصادرها. ورأت ارندت في ألمانيا خلال فترة ما بين الحربين مزيدا من الأفراد «المتذررين» الذين واجهوا عالما لم يستطيعوا

السيطرة عليه أو توقع أحداثه، عالما تعرضت فيه مصادر الدخل واحترام الذات للتهديد. الأمر الذي أدى لانبثاق نوع من «المرارة المتمحورة حول الذات»[34]، حفزت فيه معاداة السامية احتمال استرجاع احترام الذات[35]. ولاحظت في معرض الإشارة إلى الكوارث الاقتصادية، مثل البطالة وخسارة المدخرات بسبب التضخم الهائل، «حقيقة أن المصير نفسه حل بجمهور من الأفراد بشكل متماثل/ رتيب لكن معنوي/ مجرد، لم تمنع حكمهم على أنفسهم فيما يتعلق بالفشل الفردي، وعلى العالم فيما يتعلق بحالات محددة من الظلم»[36]وأضافت:

> من وجهة نظر مؤسسة تعمل وفقا لمبدأ من لا ينضم يُقصى، ومن ليس معي فهو ضدي، فقد العالم عموما جميع ملامح التمايز ومعالم التعدد التي أصبحت على أية حال مربكة ومشوشة ويتعذر احتمالها بالنسبة لأناس فقدوا مكانهم ووجهتهم فيه[37].

يؤكد مارك يورغنزماير على نقطة مشابهة حين يقول: «إن العيش في ظل حالة الحرب هو عيش في عالم يعرف فيه الأفراد من هم، ولماذا يعانون، ومن الذي أذلهم»[38]. في ألمانيا، قوّت حالة انعدام الأمان الاقتصادي وما نتج عنها من مشاعر السخط عزيمةَ وتصميم النخب على تحويل هذا الاستياء عن القضايا الاقتصادية باتجاه الأعداء الخارجيين والقضايا الثقافية: وبهذا المعنى، يمكن للعدو الأجنبي أن ينوب بشكل مفيد عن العدو الطبقي»[39].

لم تواجه الولايات المتحدة بالطبع أزمة اقتصادية بحجم تلك التي واجهتها ألمانيا في فترة ما بين الحربين. وحتى في هذه الحالة فإن اليقينيات المتعلقة بـ«نحن وهم» التي أبرزتها إدارة بوش اكتسبت على ما يبدو جاذبية وفتنة نتيجة ظروف الحالة المتطرفة من انعدام الأمان الاقتصادي والاجتماعي، والظلم، والبلايا التي روجت لها هذه الإدارة في الوقت ذاته. وفي هذه الأثناء، ساعدت حالة غياب

المساواة والأمان في توفير القوة البشرية اللازمة، حيث شجع الفقر على انضمام المجندين إلى القوات المسلحة، خصوصا في الولايات الجنوبية وبين الأقليات العرقية[40].

الولايات المتحدة مجتمع يعاني بشدة من الظلم الاجتماعي، حيث يملك أغنى الأغنياء الذين يشكلون نسبة 1% أكثر من 38% من الثروة القومية، وحيث متوسط عمر الفرد أدنى من معدله في أي دولة صناعية أخرى[41]. في عام 2001، كان حوالي تسعة ملايين شخص في الولايات المتحدة يعانون من «جوع حقيقي»، بينما كان 31 مليونا يعانون من انعدام الأمن الغذائي، وذلك وفقا لوزارة الزراعة الأمريكية. وتفاقم الفقر والظلم في عهد إدارة بوش وذلك مع زيادة حدة الانكماش وتحديد موعد زمني لمدفوعات الضمان الاجتماعي من قبل برنامج إصلاح الرعاية الاجتماعية، الأمر الذي أدى ـ بالإضافة إلى أسباب أخرى ـ إلى ظهور مؤسسة أمريكية غريبة، عرفت باسم «المطاعم الخيرية» التي تقدم الطعام المجاني (أو الرخيص الثمن) للفقراء والمعوزين[42].

في التسعينيات، سعى ملايين الأمريكيين العاديين لتحقيق أحلامهم الخرافية من خلال البورصة، مما رفع أسعار الأسهم. وخفضت الضريبة على أرباح رأس المال، الأمر الذي ضاعف الثروات التي هبطت من السماء. وحين بدأت الأسعار بالتدهور منذ عام 1999، سارع مدراء الشركات ـ بمساعدة مؤسسات النفط والطاقة والمال المتحررة من القيود والضوابط ـ إلى سحب أموالهم حتى برغم نصحهم لحملة الأسهم العاديين والمستخدمين المحليين بمتابعة استثمارهم[43] شركة «انرون» (إحدى الشركات الرئيسة الراعية لعائلة بوش) كانت أشهر مثال على خداع المستثمرين. فمع زيادة اهتمام وسائل الإعلام بالكوارث والفضائح التي عصفت بشركة "انرون" وغيرها بحلول نهاية عام 2001، شعر كارل روف بالقلق من أن تصيب

آثارها بوش وتشيني[44]. وبدا احتمال حدوث ردة فعل شعبية عميقة كبيرا نظرا لأن ثروة الطبقة الوسطى الأمريكية في حالة ركود عموما، والأمريكيين يراكمون ديونا استهلاكية يصعب عليهم سدادها[45].

وبدلا من إنزال أي نوع من العقاب أو اللجوء إلى ردة فعل سياسية، حصل الأغنياء على تخفيضات ضريبية ضخمة بفضل جورج بوش[46]. وفي عام 2001، أشرفت إدارة بوش على إجراء تخفيضات ضريبية (على الدخل والعقارات) بلغ إجمالي حجمها 1، 35 تريليون دولار (تطبق على مدى عشر سنوات). وبعد حوالي عامين، أجري مزيد من التخفيضات الضخمة[47] أضيف ذلك كله إلى تهرب النخبة الأمريكية من دفع الضرائب، تلك النخبة التي كان يخاطب بوش أفرادها في إحدى حفلات جمع التبرعات حين اعترف قائلا: «هذا حشد مؤثر ـ الأغنياء والأكثر غنى. بعضهم يدعونكم بالنخبة. أنا أدعوكم الركيزة التي أعتمد عليها»(48). كتب مايكل مور، الذي يتمتع بحس خاص تجاه الأبعاد الطبقية لـ«الحرب على الإرهاب» يقول:

لربما يتمثل أكبر نجاح حققته الحرب على الإرهاب في قدرتها على تشتيت انتباه الأمة عن حرب الشركات علينا. في العامين التاليين على هجمات الحادي عشر من سبتمبر، مرت الشركات الأمريكية بنوبة من الهياج التدميري العنيف والمجنون تركت ملايين الأمريكيين العاديين بدون مدخرات، وقد نهبت معاشاتهم التقاعدية، وتضاءلت أو سحقت آمالهم بمستقبل مريح لعائلاتهم[49].

يقدم توماس فرانك دراسة حالة كاشفة حول الكيفية التي غذى فيها انعدام الأمان الاقتصادي التأييد والدعم لبوش وللسياسيين اليمينيين عموما. ويوثق الخراب الذي أصاب ولاية كنساس (في الوسط الأمريكي)، كما يسلط الضوء على المفارقة التي تمثلها ولاية دمرت زراعتها إصلاحاتُ السوق الحر ومع ذلك بقيت خلف جورج بوش تسانده بكل صلابة. والأهم أن بعض أشد المناطق فقرا في

كنساس ضمت أشد المؤيدين حماسا للمتشددين الجمهوريين. فعند نهاية القرن العشرين، ازدهرت سياسة راديكالية قوية في كنساس، مع دعم راسخ للنقابات، وللتشريعات المناهضة للاحتكارات، وللملكية العامة. لكن الحلول العلاجية القديمة لا تعني اليوم الكثير بالنسبة لمعظم سكان الولاية. وفي الحقيقة، يقدم فرانك الحجة على أن العداء القديم للشركات قد حل محله عداء تجاه سلسلة من «الجماعات الخارجية»، وتجاه قوى (علم، نشوء، علمانية، تعددية) يبدو أنها تقوض اليقينيات القديمة والمريحة[50].

وكثيرا ما اعتبرت هذه القوى مدينية ومنتشرة في القطاعات الساحلية من الولايات المتحدة. وقدم سايمون سكاما الحجة بأسلوب بليغ على أن هناك «أمتين اثنتين» فعليا في الولايات المتحدة: «الوسط الأمريكي الديني» حيث يهيمن الجمهوريون عموما؛ و«أمريكا الدنيوية»، في المدن الكبرى والمناطق الساحلية الغنية بالمهاجرين، الأكثر انفتاحا، ثقافيا وتجاريا، والتي ترى فيها أمريكا الدينية مصدرا للفساد والتلوث والفجور. أمريكا الدينية تتمحور حول المزرعة والكنيسة والثكنات (أماكن مسيجة ومقدسة)، وحول جعل المكان على صورتها، كما يشير سكاما، بينما تتمحور أمريكا الدنيوية حول العثور على طرق للمشاركة في حيز مكاني مكتظ بالناس[51].

في كنساس، تسيطر خمسة أو ستة مشاريع زراعية ضخمة على القطاع الزراعي برمته، وتفرض أسعارا مرتفعة على المستهلكين. وفي الوقت ذاته، حاول المزارعون ـ بعد أن خسروا التوليفة التي تجمع دعم الأسعار وبرامج تخصيص الأراضي التي انطلقت أساسا من «المشروع الجديد» في الثلاثينيات ـ تعويض الانخفاض في المداخيل عبر زيادة الإنتاج، مما أدى إلى مزيد من الانخفاض في الأسعار. واضطر المزارعون الذين تستغلهم الاحتكارات الزراعية إلى أخذ قروض من

مصارف هذه الاحتكارات: أجبروا على رهن أراضيهم، وعندما حجزت باعوها للشركات الزراعية المهيمنة[52] ومما أسهم في تدني الأجور في القطاع الزراعي الاستخدام الواسع النطاق لليد العاملة المهاجرة في صناعة تغليف وتعليب اللحوم وتكرار نقل المصانع إلى المناطق البعيدة. مما أدى إلى إضعاف العمل المنظم في النقابات[53]. ولا يصعب رؤية كيف أجج ذلك مشاعر العداء لـ«الجماعات الخارجية»، كما هي الحال في كاليفورنيا، حيث يواجه العمال الضيوف قرارات المحاكم بطردهم على نحو متزايد عندما تسوء الحالة الاقتصادية[54]. وفي الوقت ذاته، برعت الشركات الأمريكية في تأليب المدن والولايات على بعضها بعضا، وذلك في بحثها الدائم عن أكبر قدر من الإعفاءات الضريبية، ويذكر توماس فرانك أن ذلك أدى في كنساس إلى أزمة عائدات كبرى للحكومة المحلية. إحدى البلدات باعت مدرستها الرسمية بواسطة الإنترنت. بينما ألحقت سلسلة المتاجر الكبرى «وال ـ مارت» دمارا شديدا بتجارة التجزئة المحلية[55]. ونظرا للفكرة البارزة السائدة في أمريكا: «بمقدور الجميع النجاح إذا بذلوا ما يكفي من جهد»، فإن هنالك حتما مجالا واسعا لما أشارت إليه ارندت بالحكم على الذات «فيما يتعلق بالفشل الفردي»[56].

ما نتج عن ذلك كله من المرارة وانعدام الأمان شجع ما يدعوه فرانك بسياسة «رد الفعل العنيف» التي انتهجها اليمين الجمهوري، والتي تفضل اتباع سياسة خارجية «متشددة»، مع التوكيد على سلسلة متنوعة من القضايا الثقافية غالبا. والمتشبثون بهذه السياسة يؤيدون تطبيق عقوبة الإعدام ويدعون إلى مواجهة سلسلة كاملة من «التهديدات» المحلية، مثل إضافة الفلور إلى الماء، وزواج المثليين، وأبحاث الخلايا الجذعية، ونظرية الارتقاء والنشوء، والسيطرة على الأسلحة، وموسيقى الراب، وتعاطي المراهقين للمخدرات. ويشير فرانك إلى موجة كاسحة من الشعبية لليمين الديني منذ الثمانينيات وتحول دراماتيكي في الرأي العام حول الإجهاض على وجه الخصوص. أما إدارة بوش فقد تبنت، تحت تأثير كارل روف خصوصا،

تكتيك حشد وتعبئة أنصارها المحليين عبر تبني موقف أيديولوجي واضح وتنظيم جيد[57].

فكرت سوزان فالودي في كتابها «القسوة» (1999)، بحالة عدم الأمان الاقتصادي التي أقلقت فرانك أيضا، وسلطت الضوء على تأثيراتها المسببة لتآكل الأدوار الرجولية التقليدية التي تمحورت على الحماية والتزويد. وتناولت «البحث عن شخص يوجه إليه اللوم على الموت المبتسر للوعد الرجولي»[58]، وأضافت مفصلة:

> ما بدا في الخمسينيات ملاحقة متطرفة للشيوعيين في الأجهزة الحكومية البيروقراطية، وفي الصناعات الدفاعية، والنقابات العمالية، والمدارس، ووسائل الإعلام، وهوليود، سيصبح في نهاية المطاف مطاردة لعدو متغير الشكل يمكن أن يتخذ هيئة امرأة في المكتب، أو مثلي في الجيش، أو شاب أسود في الشارع، أو أجنبي على الحدود يحاول الدخول بصورة غير مشروعة، ومن هناك تحولت إلى "معركة" سوريالية مع حوامات سوداء لا وجود لها، وحكومة عالم واحد، وجنود من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة يحتشدون بخطواتهم العسكرية في آفاق متخيلة[59].

بكلمات أخرى، كانت الرغبة في العثور على عدو موجودة من قبل. والإرهابيون، العدو الذي اتخذ الهيئة النهائية ربما، دخلوا في القالب المعد مسبقا. أما إزاحة العداء من الإرهابيين إلى مناصريهم ومؤيديهم الغامضين (المزعومين والمتخيلين) فقد حاكت التغيرات السريعة والعشوائية في تحديد وتعريف الأعداء قبل الحادي عشر من سبتمبر.

ملاحظات ختامية

إذن، يتمثل جزء من وظيفة «الحرب على الإرهاب» في كونها توفر إحساسا باليقين والأمان في عالم لا تتطابق فيه التهديدات الأمنية مع النماذج القديمة القائمة على الردع وعلى الدول، عالم فاقم فيه تحرير السوق وتآكل الرعاية الاجتماعية حالة عدم الأمان الاقتصادي. ولا يغذي البحث عن اليقين الأصولية على الطريقة «البوشية» فقط، بل يدعم الأصولية داخل العالم الإسلامي أيضا. وكما لاحظت سكيلا الورثي، لاسيما فيما يتعلق باحتلال العراق: «تقدم الأصولية، في جو تسوده الفوضى والإذلال، فلسفة راسخة وقادرة على إعطاء انطباع باليقين في عالم يغيب عنه اليقين»[60]. ونتعلم من عمل عدد من المحللين ـ جيرارد، غيليغان، وارندت على وجه الخصوص ـ أن الكراهية يمكن أن تتجه بسرعة نحو أولئك الذين يمكن تحويلهم إلى ضحايا نتيجة قربهم وضعفهم وسهولة الوصول إليهم. مرة أخرى نؤكد أن ذلك لا ينطبق على «الحرب على الإرهاب» فقط، بل على الإرهابيين الذين يواجهون مشكلة أن أعداءهم الرئيسيين ـ وأبرزهم بوش وبلير، كما هو مفترض ـ يتمتعون بحماية قوية، ولذلك فضلوا عموما مهاجمة الأهداف التي يمكن الوصول إليها بصورة أسهل. أما الافتقار إلى التمييز أو الدقة أو الإجراءات القانونية / القضائية في «الحرب على الإرهاب» فيفتح الطريق أمام نوع معاصر من الحملات المسعورة (التي طاردت الساحرات في الماضي)، وهي ظاهرة سوف نتطرق إليها الآن.